تفسير سورةُ الحج
من آية (31) إلى آية (37)
اللقاء الخامس

المعنى الإجمالي من آية (25) إلى آية (30):

إنَّ الذين كَفَروا بالله، ويَمنَعونَ غَيرَهم مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ، ومِن المسجِدِ الحرامِ -الذي جعَلْناه لجَميعِ المؤمِنينَ سواءً المقيمُ فيه والقادِمُ إليه- نذيقُهم مِن عذابٍ أليمٍ مُوجِعٍ، ومَن يُرِدْ في المسجِدِ الحَرامِ المَيْلَ عن الحَقِّ فيرتكِبْ ظُلمًا -وهو قاصِدٌ لذلك- نُذِقْه مِن عذابٍ أليمٍ مُوجِعٍ.

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- إذ بَيَّنَّا لإبراهيمَ عليه السَّلامُ مكانَ البَيتِ، وهيَّأْناه له، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ بالله شَيئًا في عبادَتِه، وطَهِّرْ -يا إبراهيمُ- بَيتيَ للطَّائِفينَ حَوْلَه، وللقائِمينَ في صلاتِهم، والرَّاكِعينَ السَّاجِدينَ، بتَنزيهِه مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والبِدَعِ والمعاصي، والقبائِحِ وجَميعِ النَّجاساتِ الحسِّيَّةِ والمعنَويَّةِ.

وأعلِمْ -يا إبراهيمُ- النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، يأتوكَ مُلَبِّينَ نِداءَكَ على مُختَلِفِ أحوالِهم، مُشاةً وركْبانًا على الرَّواحِلِ التي هُزِلَت أبدانُها مِن طُولِ السَّفَرِ ومَشقَّتِه، تأتي هذه الرَّواحِلُ مِن كُلِّ طَريقٍ بعيدٍ؛ لِيَحضُرَ الحُجَّاجُ منافِعَ لهم في أمورِ دينِهم ودُنياهم، ولِيَذكُروا اسمَ اللهِ في أيَّامٍ عشرِ ذي الحجَّةِ على ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ.

فكُلوا مِن هذه الذَّبائِحِ، وأطعِموا منها الفَقيرَ الذي اشتَدَّ فَقرُه، ثُمَّ لْيُكمِلِ الحُجَّاجُ ما بَقِيَ عليهم مِن النُّسُكِ، بإحلالِهم وخُروجِهم مِن إحرامِهم، وذلك بإزالةِ ما تراكَمَ مِن وسَخٍ في أبدانِهم، وقَصِّ أظفارِهم، وحَلْقِ شَعرِهم- ولْيُوفُوا بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجِّ، ولْيَطَّوَّفوا بالبَيتِ العَتيقِ القديمِ.

يقولُ تعالى: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ: هو ما أوجَبَه اللهُ عليكم؛ فعَظِّموه، ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ -ومنها مَناسِكُه- بأدائِها كامِلةً خالِصةً لله؛ فهو خيرٌ له في الدُّنيا والآخرةِ. وأحلَّ اللهُ لكم أكلَ الأنعامِ إلَّا ما حرَّمه فيما يُتلَى عليكم في القُرآنِ مِنَ الميتةِ وغَيرِها، فاجتَنِبوه، وابتَعِدوا عن عِبادةِ الأصنامِ؛ فإنَّها قَذَرٌ، وعَنِ كُلِّ قَولٍ باطِلٍ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾﴿31﴾

(حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) أي: مُستقيمينَ لِلَّهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ له، وإفرادِ الطَّاعةِ والعبادةِ له، مائِلينَ عن الباطِلِ إلى الحَقِّ، وعن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُقبِلينَ على اللهِ، مُعرِضينَ عن عبادةِ ما سِواه سُبحانَه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل: 120].

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ)

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال أبو حيان: لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتِنابِ عِبادةِ الأوثانِ وقَولِ الزُّورِ؛ ضَرَب مثلًا للمُشرِكِ، فقال

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) أي: ومَن يُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادتِه، فمَثَلُه في هلاكِه وضَلالِه عن الهُدى والحَقِّ، وبُعدِه مِن ربِّه؛ كمَن سَقَط مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فتمَزَّقَ جَسَدُه، فتُقَطِّعُه النُّسورُ سَريعًا، وتَستَلِبُ لَحمَه، فتأكُلُه ويتفَرَّقُ في حواصِلِها. موسوعة التفسير

(أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) أي: أو تُلقِي الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ؛ لِشِدَّةِ هُبوبِها. موسوعة التفسير

قال السعدي: فالإيمانُ بمَنزِلةِ السَّماءِ؛ مَحفوظةً مَرفوعةً، ومَن تَرَك الإيمانَ بمَنزِلةِ السَّاقِطِ مِنَ السَّماءِ عُرْضةٌ للآفاتِ والبَلِيَّاتِ، فإمَّا أن تَخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَه أعضاءً، أوْ تَهوِيَ به الرِّيحُ في مَكانٍ بَعيدٍ، كذلك المشرِكُ؛ إذا تَرَك الاعتِصامَ بالإيمانِ تَخَطَّفَتْه الشَّياطينُ مِن كُلِّ جانبٍ ومَزَّقوه، وأذهبوا عليه دِينَه ودُنياه.

شَبَّهَ الإيمانَ والتَّوحيدَ في عُلُوِّه وسَعَتِه وشَرَفِه بالسَّماءِ الَّتي هي مصْعَدُه ومَهْبَطُه؛ فمنها هبَطَ إلى الأرضِ، وإليها يَصعَدُ منها، وشَبَّهَ تارِكَ الإيمانِ والتَّوحيدِ بالسَّاقطِ مِن السَّماءِ إلى أسفَلِ سافِلينَ، مِن حيثُ التَّضييقُ الشَّديدُ والآلامُ المتراكِمةُ، والطَّيرُ الَّتي تتَخطَّفُ أعضاءَهُ وتُمزِّقُه كلَّ مُمَزَّقٍ، هي الشَّياطينُ الَّتي يُرسِلُها اللهُ سُبحانَه وتعالى عليه وتَؤُزُّهُ أزًّا، وتُزعِجُه وتَدفَعُه إلى مَظانِّ هَلاكِهِ؛ فكلُّ شَيطانٍ له مُزْعَةٌ مِن دِينِه وقَلْبِه، كما أنَّ لكلِّ طَيرٍ مُزْعةً مِن لَحمِه وأعضائِه، والرِّيحُ الَّتي تَهْوِي به في مَكانٍ سَحيقٍ هو هواهُ الَّذي حمَلَهُ على إلْقاءِ نَفْسِه في أسفَلِ مَكانٍ وأبعَدِه مِن السَّماءِ. الدرر السنية

خطَّ رسولُ اللهِ -ﷺ- خطًّا بيدِه ثم قال: "هذا سبيلُ اللهِ مستقيمًا، وخطَّ خطوطًا عن يمينِه وشمالِه، ثم قال: هذه السبلُ ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ". أخرجه أحمد

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ -ﷺ- قال: ((... وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المسوحُ، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الموتِ، حتى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المبلولِ! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتى يجعَلوها في تِلكَ المسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ مِنَ الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟! فيقولونَ: فلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى

يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ الأعراف: 40، فيقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ الحج: 31 ...)) الحديث

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾﴿32﴾

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) أي: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرْتُكم به؛ مِن اجتِنابِ الرِّجسِ مِنَ الأوثانِ، واجتِنابِ قَولِ الزُّورِ، والالتِزامِ بتَوحيدِ اللهِ: مِن تَعظيمِ شَعائِرِه، ومَن يُعَظِّمْ أعلامَ الدِّينِ الظَّاهرةَ، ومنها الهدايا، بإجلالِها والقيامِ بها، واستِسمانِها وتَكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فإنَّه يُبَرهِنُ بذلك على تَقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛ فتَعظيمُها تابِعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه، وتَعظيمُها مِن فِعلِ المتَّقينَ أصحابِ القُلوبِ المخلِصةِ الوَجِلةِ مِن خَشيةِ اللهِ. موسوعة التفسير

والشعائر: جمع شعيرة؛ وهي كلُّ ما أمر الله به من أمور الدين، وتعظيم شعائر الله بإجلالها، وإحلالها المكانة الرفيعة في المشاعر والقلوب، وأداؤها برغبةٍ ومحبة.

إن شعائر الله تحيط حياتنا كلَّها، إذ "الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة"(السعدي)، وهي أنواع: شعائر زمانيَّة، وشعائر مكانية، وشعائر تعبدية.

التَّقوى أصلُها في القَلبِ، كما قال تعالى: وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ؛ لذا ذُكِرَت القلوبُ؛ لأنَّها مَراكِزُ التَّقوى التي إذا ثَبَتَت فيها وتَمكَّنَت، ظهَرَ أثَرُها في سائِرِ الأعضاءِ.

قال السعدي: فيه أنَّ تَعظيمَ شَعائِرِ اللهِ صادِرٌ مِن تَقوى القُلوبِ، فالمعَظِّمُ لها يُبَرهِنُ على تقواهُ وصِحَّةِ إيمانِه؛ لأنَّ تعظيمَها تابِعٌ لِتَعظيمِ اللهِ وإجلالِه.

فالمقصودُ تَقْوَى القلوبِ لِلَّهِ، وهو عبادَتُها له وحْدَه دونَ ما سِواهُ بغايَةِ العبودِيَّةِ له، وهذا مما يُبيِّنُ أنَّ عبادةَ القلوبِ هي الأصلُ، كما قال النبيُّ -ﷺ-: ((إنَّ في الجسدِ مُضْغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ)).

والتقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية، وتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وقاية تَقيه من ذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

وتقوى الله أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

إنَّ حقيقةَ التقوى؛ ألّا تَنطِقَي بكلمةٍ؛ إلّا وقَد أعدَدْتِ لها جَواباً بينَ يَدَيِ الله، وحقيقةُ التقوى ألّا تكوني عَدُوة لإبليسَ في العَلانِيَةِ صديقة لَهُ في السِّرِّ.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾﴿33﴾

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) أي: لكم -أيُّها الحُجَّاجُ- في البُدْنِ والهَدايا مَنافِعُ؛ مِن لَبَنِها وصُوفِها وأوبارِها وأشعارِها، وزُكوبِها وغيرِ ذلك، إلى وَقتِ نَحْرِها. موسوعة التفسير

فيه تَشريعٌ لإباحةِ الانتِفاعِ بالهَدايا انتِفاعًا لا يُتلِفُها، وهو رَدٌّ على المشرِكينَ؛ إذ كانوا إذا قَلَّدوا الهَدْيَ وأشعَروه، حَظَروا الانتفاعَ به؛ مِن رُكوبِه، وحَمْلٍ عليه، وشُربِ لَبَنِه، وغيرِ ذلك، فالآيةُ فيها دلالةٌ على أنَّ البُدْنَ إذا جُعِلَتْ شعائرَ لم يَحْرُمِ الانتفاعُ في الظَّهرِ والدَّرِّ إلى أنْ تُنْحَرَ. الدرر السنية

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) أي: ثمَّ يَحِلُّ نَحرُ تلك البُدْنِ عندَ بُلوغِها البَيتَ العَتيقَ. موسوعة التفسير

قال القصاب: دَلالةٌ على أنَّ اسمَ البيتِ غَلَبَ على الحَرَمِ كلِّه فسُمِّيَ به؛ لأنَّ العِلْمَ يُحيطُ أنَّ الشَّعائرَ لا تُنحَرُ عندَ البَيتِ نَفْسِه، إنَّما مَناحِرُها أرضُ مِنًى.

ما قال تعالى: (وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) [البقرة: 196].

وقال سُبحانَه: (هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) [المائدة: 95].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾﴿34﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال ابن عاشور: لَمَّا جَعَلَ المشرِكونَ لأصنامِهم مَناسِكَ تُشابِهُ مناسكَ الحَجِّ، وجعَلوا لها مَواقيتَ ومَذابحَ، ذَكَّرهم اللهُ تعالى بأنَّه ما جَعَلَ لكلِّ أُمَّةٍ إلَّا مَنسَكًا واحدًا للقُربانِ إلى اللهِ تعالى، الذي رَزَقَ الناسَ الأنعامَ التي يَتقرَّبون إليه منها؛ فلا يَحِقُّ أنْ يُجعَلَ لغيرِ اللهِ مَنْسَكٌ.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) أي: وكلُّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ ممَّن قَبْلَكم شرَعْنَا لهم التقرُّبَ إلى اللهِ بالذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ ليَذكُروا اسمَ اللهِ وَحْدَه عندَ نَحرِ ما رزَقَهم مِنَ الإبِلِ أو البَقَرِ أو الغَنَمِ، ويجعَلوا نَسيكَتَهم لِوَجهِه. موسوعة التفسير

مَنْسَكًا: أي: إراقةَ الدِّماءِ، وذَبْحَ القَرابينِ؛ مِن نَسَكَ يَنْسُكُ: إذا ذبحَ القُربانَ، أو هو الموضعُ الَّذي يُنْسَكُ للَّهِ فيه، ويُتَقَرَّبُ إليه فيه، أو: العيدُ، وأصلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقرُّبٍ إلى اللهِ تعالى.

قال الواحدي: في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الذَّبائحَ التي يُتقَرَّبُ بها ليست مِن خَصائصِ هذه الأمَّةِ، بل كانت لكُلِّ أمَّةٍ، وعلى أنَّ الضَّحايا لم تَزَلْ مِنَ الأنعامِ، وأنَّ التَّسميةَ على الذَّبحِ كانت مَشروعةً، قال ابن عثيمين: فالذَّبحُ تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى مَشروعٌ في كُلِّ مِلَّةٍ لِكُلِّ أُمَّةٍ، وهو بُرهانٌ بَيِّنٌ على أنَّه عِبادةٌ ومَصلَحةٌ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ وأُمَّةٍ. الدرر السنية

قال ابن عثيمين: في هذا دَليلٌ على أنَّ ذَبْحَ الأُضحِيَّةِ وذِكْرَ اسمِ اللهِ عليها عِبادةٌ مَقصودةٌ بذاتِها، وأنَّها مِن توحيدِ اللهِ وتمامِ الاستِسلامِ له، وربَّما كان هذا المقصودُ أعظَمَ بكَثيرٍ مِن مُجَرَّدِ انتِفاعِ الفَقيرِ بها.

(فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا) أي: فمَعبودُكم الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فله وَحْدَه أخلِصوا عِباداتِكم، وانقادُوا له بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: فيه أنَّه وإنِ اختَلَفَت أجناسُ الشَّرائعِ، فكُلُّها مُتَّفِقةٌ على هذا الأصلِ، وهو أُلوهيَّةُ اللهِ، وإفرادُه بالعُبوديَّةِ، وتَركُ الشِّركِ به؛ ولهذا قال تعالى: فَلَهُ أَسْلِمُوا.

قال البقاعي: (ولَمَّا ثبَت كونُه واحِدًا، وجَب اختِصاصُه بالعبادةِ؛ فلذا قال: فَلَهُ أي: وحْدَه أَسْلِمُوا أي: انقادُوا بجميعِ ظَواهِركم وبَواطِنِكم في كلِّ ما أمَر به أو نَهَى عنه).

كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: 25].

(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) أي: وبَشِّرْ -يا مُحَمَّدُ- بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ الخاضِعينَ الخاشِعينَ المتواضِعينَ المطمَئِنِّينَ لله، المنيبينَ إليه. موسوعة التفسير

وقال الطّبريّ: "قوله: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ): بشّر يا محمّد الخاضعين لله بالطّاعة المذعنين له بالعبوديّة المنيبين إليه بالتّوبة".

وقال النّيسابوريّ: أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ: "اطمأنّوا إليه وانقطعوا لعبادته".

قال ابن حيان: ناسَبَ تَبشيرُ مَن اتَّصَف بالإخباتِ هنا؛ لأنَّ أفعالَ الحَجِّ؛ مِن نَزعِ الثِّيابِ، والتجَرُّدِ مِنَ المخيطِ، وكَشْفِ الرَّأسِ، والتردُّدِ في تلك المواضِعِ الغَبرةِ المحَجَّرةِ، والتلبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ لا يَعلَمُ مَعناها إلَّا اللهُ تعالى- مُؤْذِنٌ بالاستِسلامِ المحْضِ، والتَّواضُعِ المفرِطِ؛ حيثُ يَخرُجُ الإنسانُ عن مألوفِه إلى أفعالٍ غَريبةٍ؛ ولذلك وصَفَهم بالإخباتِ والوَجَلِ إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى، والصَّبرِ على ما أصابَهم مِنَ المشاقِّ، وإقامةِ الصَّلواتِ في مواضِعَ لا يُقيمُها إلَّا المؤمِنونَ المصطَفَونَ، والإنفاقِ مِمَّا رزَقَهم، ومنها الهَدايا التي يُغالونَ فيها.

والإخبات: سكونٌ وطمأنينة وخشوعٌ وخضوع وذل لله -تبارك وتعالى-، فإذا أخبت القلب إلى الله -عز وجل- تحلى بجميل الصفات، وحسن النعوت، وطيب الأخلاق، والآداب.

وقال البقاعي: " أي المخبتين الذين هم في غاية السهولة واللين والتواضع لربهم بحيث لا يكون عندهم شيء من كبر وينظرون عواقب الأمر وما أعد عليها من الأجر".

إن الإخبات والتذلُّل والتواضع: ثمرةٌ جليلة من ثمار العلم، ولا يعرِفُ قيمتَه، ولا يذوق حلاوتَه، إلا أهلُ العلم والبيان، والأدب والعرفان، قال تعالى في إيضاح ذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54]، وكلما ازداد المرءُ من مَعِين العلم والإيمان، ورسخت قدمُه في المعرفة والبيان، اطمئنَّ قلبُه لذكر الله وتدبر القرآن، وانقاد قلبه وجوارحه للواحد الديان.

إن القلب هو مَلِكُ الأعضاء، فإن رُزِق الإخبات والاطمئنان واليقين، خشَع وسكن وذلَّ للهِ سبحانه وأناب إليه، وإذا أخبَتَ القلب فإن أثرَ ذلك يظهر على الجوارح والأعضاء، فيتحلَّى المؤمن بالأخلاق الفاضلة، والصفات الحسنة، والمزايا الطيبة؛ من صدقٍ وإيثار، وعدلٍ وإنصاف، ومحبة وقوة في طاعة الله، ونشاطٍ ومسارعة إلى الخيرات، وبعدٍ عن المحرَّمات والسيئات.

القلب المخبت: هو القلب الخاضع المطمئن الساكن الراضي بقضاء الله وبحكم الله وبفعل الله وبقدر الله، القلب المخبت يعلم أن الأمر أمره والفعل فعله والمشيئة مشيئته، وهو فعال لما يريد. وقال أهل العلم إن القلب المخبت الساكن عند أي ابتلاء، أو مصيبة، أو هم، أو غم، أو رزق دائما يقول شاء الله وقدر الله وخلق الله وكتب الله وعلم الله ودائما يقول إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ.

لقد دلَّنا المولى على صفاتِ المخبتين، وأرشدنا إلى أخلاقهم، وبيَّن لنا أعمالهم؛ من أجلِ أن نلحق برَكْبِهم فقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾﴿35﴾

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) أي: الذين خَشَعَت قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ، وخضَعَت مِن خَشيَتِه؛ خَوفًا مِن عِقابِه وسَخَطِه. موسوعة التفسير

وَجِلَتْ: أي: خَافَتْ، والوجلُ خوفٌ مقرونٌ بهيبةٍ ومحبةٍ.

قال ابن عطية: وصَفَهم تعالى بالخَوفِ والوَجَلِ عندَ ذِكرِ اللهِ؛ وذلك لقُوَّةِ يَقينِهم، ومُراعاتِهم لرَبِّهم، وكأنَّهم بينَ يَدَيه.

المؤمنون الصادقون هم الذين إذا ذُكِرَ اللهُ خافوا منه، فكان هذا الخوفُ سائقاً لهم إلى العمل، وترك الذنوب وقصر الأمل، كما قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال: 2]، وقال سُبحانَه: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر: 23].

المؤمنون حقاً هم الذين ينتفعون بمواعظ القرآن فيستمعوا وينتفعوا ويتأثروا ويتغيروا ويغيروا ليكونوا كما يحب الله، (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [الذاريات: 55]، فهم يخافون الوعيد (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) [ق: 45]، فمن لم يعظْهُ القرآن فلا واعظ له، قال بعض السلف: "من لم يردعه القرآن والموتُ فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع".

قال الشنقيطي: في قول الله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) اعلَمْ أنَّ وَجَلَ القُلوبِ عِندَ ذِكرِ اللهِ -أي: خَوْفَها مِنَ اللهِ عندَ سَماعِ ذِكرِه- لا يُنافي ما ذكَرَه جلَّ وعلا مِن أنَّ المؤمِنينَ تَطمَئِنُّ قُلوبُهم بذِكرِ اللهِ، كما في قَولِه تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الرعد: 28، ووَجهُ الجَمعِ بينَ الثَّناءِ عليهم بالوَجَلِ -الذي هو الخَوفُ عِندَ ذِكرِه جَلَّ وعلا- معَ الثَّناءِ عليهم بالطُّمَأنينةِ بذِكرِه، والخَوفُ والطُّمَأنينةُ مُتَنافيانِ: هو أنَّ الطُّمَأنينةَ بذِكرِ اللهِ تكونُ بانشراحِ الصَّدرِ بمَعرفةِ التَّوحيدِ، وصِدْقِ ما جاء به الرَّسولُ -ﷺ-، فطُمَأنينَتُهم بذلك قَويَّةٌ؛ لأنَّها لم تتطرَّقْها الشُّكوكُ ولا الشُّبَهُ- والوَجَلَ عِندَ ذِكرِ الله تعالى يكونُ بسَبَبِ خَوفِ الزَّيغِ عن الهُدى، وعَدَمِ تقَبُّلِ الأعمالِ، كما قال

تعالى عنِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) [آل عمران: 8]، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) [المؤمنون: 60]

سألت عائشةُ رضي الله عنها: رسولَ اللَّهِ -ﷺ- عن هذِهِ الآيةِ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ قالت عائشةُ: أَهُمُ الَّذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرِقونَ قالَ لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ، ولَكِنَّهمُ الَّذينَ يصومونَ ويصلُّونَ ويتصدَّقونَ، وَهُم يخافونَ أن لا تُقبَلَ منهُم". صحيح الترمذي

فالمؤمن يخاف أن يتقلب قلبه، ويخاف أن ينتكس على عقبيه، ويخاف أن يُفتن فيُضَيّع دينه، وهذا الخوف من تمام الإيمان وكماله، وكلّما قوي الإيمان قوي الخوف، وإذا ضعُف الإيمان ضعُف الخوف من الله – جل وعلا – فهم مع الإحسان في العبادة وكمال الطاعة، وحسن المراقبة لله، والجدّ في طاعته، في قلوبهم خوف، ولهذا أيضا يقول الحسن البصري –رحمه الله–: (إنّ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع إساءة وأمن).

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) أي: والصَّابِرينَ على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى والمصائِبِ، فلا يَجري منهم التسَخُّطُ على ذلك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة: 155-157].

الصبر خُلُقٌ فاضِلٌ وحقيقتُه: ترك الشَّكوى من أَلَمِ البلوى لغير الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى أثنى على أيوب – عليه السلام – بالصبر، بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: 44]؛ مع دعائه في دفع الضُّر عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83].

ويكظمون ما في قلوبهم من الغيظ على من يؤذيهم من الناس، يتحلون بالصبر ويدفعونَ بالتي هي أحسن طمعاً في ثواب الله وجزائه، فهم على علمٍ ويقين بأنَّ مَنْ عفا وأصلح فأجرُهُ على الله، والله يحب المحسنين.

المخبت يصبر على أقدار الله، ويعلم بأن المصيبة مُقدَّرة من الله تعالى، وأنَّ مَنْ صَبَر أُجِرَ، وأمْرُ اللهِ نافذ، ومَنْ جَزِعَ وتسخَّط أثِمَ، وأمْرُ اللهِ نافذ، ومِصداقُه قول النبيّ -ﷺ-: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» رواه الترمذي

قال المناوي: "إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم" بأنواع البلايا حتى يمحِّصَهم من الذنوب ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا غيرةً منه عليهم أن يقعوا فيما يضرُّهم في الآخرة، وجميعُ ما يبتليهم به من ضنْك المعيشة وكدَر الدنيا وتسليط أهلها، ليشهَدَ صِدْقهم معه وصبْرهم في المجاهَدَة، قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31]

المخبت يعلم أنَّ الابتلاء من علامات حُبِّ اللهِ للعبد فيصبر لينال المحبة.

(وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ) أي: والمؤَدّينَ الصَّلاةَ كامِلةً مُستقيمةً ظاهِرًا وباطِنًا، فيُحافِظونَ على أوقاتِها وواجباتِها، ويؤَدُّونَها على الوَجهِ الذي أمَرَ اللهُ به. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) [المؤمنون: 1- 9]

قال البقاعي: عبَّر بالوصفِ دُون الفِعلِ (أقاموا)؛ إشارةً إلى أنَّه لا يُقيمُها على الوجهِ المشروعِ مع تِلك المشاقِّ والشواغِلِ إلَّا الأراسخُ في حُبِّها؛ فهُم -لِمَا تمكَّن مِن حُبِّها في قُلوبِهم، والخوفِ مِن الغَفلةِ عنها- كأنَّهم دائمًا في صَلاةٍ.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) أي: ويُنفِقونَ مِمَّا آتَيناهم مِن رِزقٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وهذا يشمَلُ جَميعَ النَّفَقاتِ الواجِبةِ؛ كالزَّكاةِ، والكفَّارة، والنَّفَقةِ على الزَّوجات والمماليكِ، والأقاربِ؛ والنَّفَقاتِ المستحَبَّة؛ كالصَّدَقاتِ بجَميعِ وُجوهِها. وأُتِيَ بـ مِنْ المفيدةِ للتَّبعيضِ؛ لِيُعلَمَ سُهولةُ ما أمَرَ اللهُ به ورَغَّبَ فيه، وأنَّه جزءٌ يَسيرٌ مِمَّا رزَقَ اللهُ، ليس للعَبدِ في تحصيلِه قُدرةٌ، لولا تيسيرُ اللهِ له ورِزقُه إيَّاه).

أن الله ابتلانا بهذا المال، فمن استعان به على طاعة الله، وأنفقه في سبل الخيرات، كان سببا موصلا له إلى رضوان الله، والفوز بالجنة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)[فاطر: 29- 30].

وبالصدقات تستر العورات، وتفرج الكربات، وتدفع الشدائد والبلايا التي لا يعلمها إلا الله.

كما قال تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: 274].

وقال سُبحانَه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: 2 – 4].

قال ابن عاشور: أتبَعَ صِفةَ المخبِتينَ بأربَعِ صِفاتٍ؛ وهي: وَجَلُ القُلوبِ عندَ ذِكرِ اللهِ، والصَّبرُ على الأذى في سَبيلِه، وإقامةُ الصَّلاةِ، والإنفاقُ، وكُلُّ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ مَظاهِرُ للتَّواضُعِ، فليس المقصودُ مَن جَمَع تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ بَعضَ المؤمنينَ لا يَجِدُ ما يُنفِقُ منه، وإنما المقصودُ مَن لم يُخِلَّ بواحدةٍ منها عندَ إمكانِها.

من فوائد (الإخبات):

(1) أوّل درجات الطّمأنينة والثّقة بالله وحسن الظّنّ به.

(2) للمخبت البشرى من الله بالجنّة.

(3) الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

(4) الإخبات من الأحوال القلبيّة الموجبة للالتفات عمّا سوى الله.

(5) الإخبات يورث صاحبه العزّة في الدّنيا والنّجاة في الآخرة.

(6) الإخبات يقي من الفتنة.

(7) بالإخبات ترتفع الهمّة وتعلو النّفس عن الرّغبة في المدح أو الخشية من الذّمّ.

(8) بالإخبات يباشر القلب حلاوة الإيمان واليقين. (نضرة النعيم)

"كان النّبيّ -ﷺ-يدعو يقول: «ربّ أعنّي ولا تُعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، ربّ اجعلني لك شكّارًا، لك ذكّارًا، لك رهّابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوّاهًا منيبًا، ربّ تقبّل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبّت حجّتي، وسدّد لساني، واهدِ قلبي، واسلل سخيمة صدري»" (رواه والترمذي).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴿36﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:قال البقاعي: لَمَّا قَدَّم اللهُ سُبحانَه الحَثَّ على التقَرُّبِ بالأنعامِ كُلِّها، وكانت الإبِلُ أعظَمَها خَلْقًا، وأجَلَّها في أنفُسِهم أمْرًا؛ خصَّها بالذِّكرِ

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) أي: والإبِلَ الضِّخامَ العِظامَ الأجسامِ -وفي حُكمِها البقرُ- جعَلْناها لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أعلامِ دِينِ اللهِ الظَّاهِرةِ التي يُتعبَّدُ ويُتقرَّبُ بها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فشُرِعَ سَوقُها إلى البَيتِ، وتَقليدُها وإشعارُها، وتعظيمُها، ونَحْرُها والإطعامُ منها. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: أهدى النبي -ﷺ- في حجة الوداع مائة من النوق، ذبح منها ثلاثاً وستين بيده، والباقي أعطاه علي بن أبي طالب يذبحه، ويوزع لحمه، وأمر أن يؤخذ من كل بعير قطعة، فجعلت في قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها، تحقيقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [الحج: 28]

(لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) أي: لكم في الإبِلِ مَنافِعُ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ. موسوعة التفسير

(فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ) أي: فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها. موسوعة التفسير

قال السعدي: (تقامُ على قوائِمِها الأربَعِ، ثمَّ تُعقَلُ يَدُها اليُسرى، ثمَّ تُنحَرُ).

عن زيادِ بنِ جُبَيرٍ، ((أنَّ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أتَى على رَجُلٍ وهو يَنحَرُ بَدَنَتَه باركةً، فقال: ابعَثْها قِيامًا مُقَيَّدةً؛ سُنَّةَ نَبيِّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)) رواه مسلم.

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا) أي: فإذا سَقَطت الإبِلُ بعد نَحْرِها، ووقَعَت جُنوبُها على الأرضِ، فكُلوا مِن لَحمِها. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (قَولُه: فَكُلُوا مِنْهَا هذا مَخرَجُه مَخرَجُ الأمرِ، ومعناه الإباحةُ والإطلاقُ؛ يقولُ اللهُ: فإذا نُحِرَت فسَقَطت مَيتةً بعد النَّحرِ، فقد حَلَّ لكم أكلُها، وليس بأمرِ إيجابٍ).

(وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) أي: وأطعِموا منها القانِعَ، وهو: الفَقيرُ السَّائِلُ بتذَلُّلٍ، وأطعِموا منها المعْتَرَّ، وهو: الذي يأتي مُتَعَرِّضًا للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: القانِعُ: الفقيرُ المتعَفِّفُ الذي لا يَسألُ، والمعتَرُّ: الفقيرُ الذي يسألُ.

قال ابن عثيمين: استُنبِطَ مِن الآيةِ: أنَّها تُجَزَّأُ ثلاثةَ أثلاثٍ؛ فيأكُلُ ثُلُثًا، ويُهدِي ثُلثًا، ويتصَدَّقُ بثُلُثٍ.

(كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أي: مِثلَ ذلك التَّسخيرِ العَجيبِ الذي تُشاهِدونَه ذَلَّلْنا لكم الإبِلَ -أيُّها النَّاسُ- ومكَّنَّاكم مِن التصَرُّفِ فيها، فتَنتَفِعونَ بِرُكوبِها والشُّربِ والأكلِ منها؛ لِتَشكُروا اللهَ على نِعمةِ تَسخيرِها لكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) [يس: 71 – 73].

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾﴿37﴾

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا) أي: لن يَصِلَ إلى اللهِ شَيءٌ مِن لحومِ بُدْنِكم، ولا دِمائِها المهراقةِ، ولم يَشرَعْ ذَبحَها لذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعنها. موسوعة التفسير

قال ابنُ عاشور: (المقصودُ مِن نَفيِ أن يَصِلَ إلى اللهِ لُحومُها ودِماؤُها: إبطالُ ما يَفعَلُه المشرِكونَ مِن نَضحِ الدِّماءِ في المذابِحِ وحَولَ الكعبةِ، وكانوا يَذبَحونَ بالمروةِ. قال الحسن: كانوا يُلَطِّخونَ بدِماءِ القرابينِ، وكانوا يُشَرِّحونَ لحومَ الهدايا ويَنصِبونَها حولَ الكعبةِ؛ قُربانًا لله تعالى. يعني: زيادةً على ما يعطونَه للمحاويجِ).

(وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) أي: ولكِنَّ الذي يَصِلُ إلى اللهِ ويَبلُغُه: تَقواكم وإخلاصُكم العمَلَ له وَحْدَه، فيتقَبَّلُه منكم، ويُثيبُكم عليه إنِ اتَّقَيتُموه فيما تَذبَحونَه مِنَ البُدْنِ، وأرَدْتُم بذلك وَجْهَه وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ؛ وعَظَّمتُم بها حُرُماتِه، وعَمِلتُم فيها بما أمَرَكم به؛ فليس المقصودُ مُجَرَّدَ ذَبحِها فحَسْبُ. موسوعة التفسير

قال السعدي: في هذا حَثٌّ وترغيبٌ على الإخلاصِ في النَّحرِ، وأن يكونَ القَصدُ وَجهَ اللهِ وَحْدَه، لا فَخرًا ولا رياءً، ولا سُمعةً ولا مُجَرَّدَ عادةٍ، وهكذا سائِرُ العباداتِ، إن لم يقتَرِنْ بها الإخلاصُ وتقوى اللهِ، كانت كالقُشورِ التي لا لُبَّ فيها، والجَسَدِ الذي لا رُوحَ فيه.

كما قال تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر: 10].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم)) رواه مسلم.

(كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) أي: هكذا سخَّرَ اللهُ لكم البُدْنَ؛ كي تَعرِفوا عظَمَتَه باقتدارِه على ما لا يَقدِرُ عليه سِواه، فتُوَحِّدُوه بالكِبرياءِ؛ شُكرًا له في مقابِلِ تَوفيقِه إيَّاكم لِدينِكم، وللنُّسُكِ في حَجِّكم. موسوعة التفسير

قال القرطبي: مَنَّ سُبحانَه علينا بتَذليلِها وتَمكينِنا مِن تَصريفِها، وهي أعظَمُ مِنَّا أبدانًا، وأقوى منا أعضاءً؛ ذلك لِيَعلَمَ العَبدُ أنَّ الأمورَ ليست على ما يَظهَرُ إلى العَبدِ مِن التَّدبيرِ، وإنَّما هي بحَسَبِ ما يُريدُها العزيزُ القَديرُ، فيَغلِبُ الصَّغيرُ الكبيرَ؛ لِيَعلَمَ الخَلقُ أنَّ الغالِبَ هو اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ فَوقَ عِبادِه ،

قال ابن عاشور: فالرجُلُ الواحدُ يأخُذُ العدَدَ منها ويَسوقُها مُنقادةً، ويؤلِمُها بالإشعارِ ثمَّ بالطَّعنِ، ولولا أنَّ الله أودع في طباعِها هذا الانقيادَ، لَما كانت أعجَزَ مِن بعضِ الوحوشِ التي هي أضعَفُ منها، فتنفِرُ مِن الإنسانِ ولا تُسخَّرُ له.

(وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) أي: وبَشِّرْ -يا مُحَمَّدُ- المحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، وفي مُعامَلتِهم لعبادِ اللهِ، بالسَّعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ. موسوعة التفسير

والمحسنون هم أهل الإيمان والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، والإخلاص له في عبادته، والصدق معه، فعبدوا الله كأنه يراهم، إجلالا ومهابة، وحياءً ومحبة، وخشية ورجاءً، ورغبا ورهبا، وهذا هو مقام الإحسان، الذي هو أعلى درجات الدين؛ كما في حديث جبريل -عليه السلام-، والمحسنون قطعوا علائق الشرك والرياء عن أعمالهم، وعبدوا ربهم بما شرعه لهم، على الوجه الذي شرعه، وأدوا فرائض الله امتثالا لأمره، واجتنبوا السيئات امتثالا لنهيه، وصبروا على ذلك، وأيقنوا بوعده ووعيده، وسارعوا إلى مرضاته، وخافوا مقام ربهم.

والمحسنون أحسنوا إلى الخلائق تحقيقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ" [رواه مسلم].أحسنوا إلى الوالدين بإكرامهما، وخفض الجناح لهما، وترك ما يؤذيهما، وإلى الأرحام بصلتهم وبرهم، وإلى الأزواج بالمعاشرة بالمعروف، وإلى الولد بحسن التربية والرعاية، وأحسنوا إلى الجار بإيصال المعروف إليه، وكف الأذى عنه، وإلى اليتيم بكفالته، ومنع العدوان عليه وعلى ماله، وأحسنوا إلى المسكين بسد حاجته، وإلى المحتاج بإعانته، وإلى الأجير بإعطائه أجره قل أن يجف عرقه، وإلى الخادم بكسوته وإطعامه، وإلى المدين بالحط عنه من الدين، وأحسنوا إلى الصغير برحمته، وإلى الكبير باحترامه، وإلى الجاهل بتعليمه، وإلى الغافل بتذكيره، وإلى المسيء بالعفو عنه والصفح، وإلى الظالم بمنعه من الظلم، وإلى المظلوم بنصرته على من ظلمه، وأحسنوا إلى العاصي والكافر بدعوتهما إلى الله، وأحسنوا إلى الدواب البهائم بإطعامها والرفق بها في استخدامها وركوبها وذبحها، وليس للإحسان حدّ، ولا يحقر قليله، "بيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ برَكِيَّةٍ، كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِن بَغايا بَنِي إسْرائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَها فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها بهِ" كما في الصحيحين.

كل مؤمن يرجو رحمة ربه، بل هي غاية أمانيه، ومنتهى سؤله، ورحمة الله كما قال سُبحانَه: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: 56].

فأهل الإحسان موعودون بمحبةَ الله، قال الله -تعالى-: (وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: 195].

هذا الرحمة التي تستدعي المزيد من فضل الكريم الرحمن على عبده، كما قال تعالى: (وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: 58].

هذه الرحمة التي تورث هدايةَ العبد وتوفيقَه وتسديدَه وإعانته، قال الله -تعالى-: (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت: 69].

هذه الرحمة التي تستوجب حسن العاقبة، والتمكينَ في الأرض، والذكرَ الجميل؛ كما قال تعالى عن نوح -عليه السلام-: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [الصافات: 78 - 80].

وقال عن موسى -عليه السلام-: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [القصص: 14].

وقال عن يوسف -عليه السلام-: (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: 56].

هذه الرحمة التي تحط الخطايا، وترفع الدرجات، وتورث الجنان؛ وقال عز شأنه: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [المرسلات: 41 - 44].

هؤلاء المحسنون الذين ينالون هذا الفضل العظيم، هم الذين أحسنوا في عبادة الله، وأحسنوا لعباد الله، فأحسنهم الله إليهم؛ كما وعدهم جل جلاله: (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) [الرحمن: 60]، وقال تبارك وتعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) [يونس: 26]، وهذه أعظم بشارة للمحسنين لذة الرؤيا فَقَدْ قَالَ -ﷺ-: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. رواهُ مُسْلِمٌ.

إن المحسنين هم السعداء الأتقياء، البررة الأخيار، وإنه كلما زاد الإحسان زاد قرب الله من عبده، فيجد العبد حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، وانشراح الصدر، ويسعد بحياة تفضي به إلى حياة خيرٍ منها، في مقعد صدق عند مليك مقتدر: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: 133 – 134].